عائشة عصمت تيمور

(٥)

بعد الزواج

تزوجت عائشة فانتقلت بالزواج الى عالم جديد لهُ ما يرافقهُ من حرية ومسؤولية، وما يخالطهُ من مسرّاتٍ وغموم. ولكان يشوقنا أن نقف على وقع هذا الظرف الخطير في نفسها، وان نستشفَّ اللون الذي بدت لها الحياة بهِ بعد أن اختلفتْ في بعض جوهرها عن حياتها في بيت أبيها

ترى أكان لها من هذا الانتقال مستطابُ الاثر أم مستنكفُ الخبر؟ أكانت بهِ محظوظة أم مغبونة؟

حسن ان نعلم، بفضل «الدر المنثور»، انها «هنالك اقتصرت عن المطالعة وإنشاد الاشعار والتفتت الى تدبير المنزل وما يلزم لهُ خصوصاً حينما رُزقت بالاولاد والبنات». ولكنَّا مضينا على تخمين ذلك وإن لم نُخبر بهِ لانهُ امرٌ طبيعيٌّ. امرٌ طبيعي كذلك ان ينسوقها كسواها عبابُ الحياة اليومية متشابهاً للجميع عادّتهِ، وان تغاير حتماً لكلّ امرىء بتغاير مزاجهِ وبتفاعل هذا المزاج والاحوال التي تعالجهُ ويعالجها. أما ما ولّدهُ هذا الانتقالُ في الشاعرة من خوالج، أما نسيج شعورها في تلك الاعوام السحيقة فذاك ما يظلُّ مغلقاً علينا لولا لمحات نسترقها في ما كتبتْ، ولولا القليل الذي ترضى ان تُلقي بهِ الينا، فتقول:

«وبعد انقضاء عشر سنوات كانت الثمرة الاولى من ثمرات فؤادي — وهي توحيده لمعة نفسي وروح أنسي — قد بلغت التاسعة من عمرها فكنت أتمتع برؤيتها تقضي يومها من الصباح الى الظهر بين المحابر والاقلام، وتشتغل بقية يومها الى المساء بابرتها تنسج بها بدائع الصنائع فأدعو لها بالتوفيق شاعرةً بحزني على ما فرط مني يوم كنت في سنها من النفرة في مثل هذا العمل. ولما بلغت ابنتي الثانية عشرة من عمرها عمدت الى خدمة امها وابيها فضلاً عن مباشرتها ادارة المنزل ومن فيه من الخدم والاتباع. فتسنى لي ان أنصرف الى زوايا الراحة» (١)

اذا نظرنا الى توحيده ابنة أمها وجب ان نسلم بأنها فتاة غير عادية. وسيكون لها من محبة والدتها نصيب فوق نصيب كلّ من اخوتها واخواتها فتكون بذلك أقدر

(١) «مقدمة الديوان التركي والفارسي»

على إزالة من نحبها الفناء او الاسى . لانه اذا أطفئ بنا الذين تبوأوا من قلوبنا المرتبة الاولى بصفوة الغبطة والاستمتاع ، أليس كذلك يأبى من يدهم أدهمُ ما تتساقطُ له المهج حسرة ؟ وبسبب توحيدة هذه ستبكي عائشة كثيراً ، كثيراً

⁂

كانت قبل الزواج قد اقتبست عن مؤنس افندي القرآن الشريف والفقه والخط ، ودرست على استاذ آخر — خليل أفندي رجائي — علم الصرف واللغة الفارسية التي سبق فعلمنا ان والدها تولى متابعة تلقينها إياها قبيل زفافها ، مكرساً لابنته كل يوم ساعتين من وقته . ثم تلت أعوام جاءت في مطلعها توحيده التي شبّت فطنة الذهن ، يقظة الفؤاد ، فحملت على منكبيها الفتيين تبعة الادارة المنزلية والتنظيم . فانقلب يشاغلُ عائشة ذلك الشوقُ القديم ، وعاد اليها بقوة الحبُّ الذي ساير عمرها في الحزن والفرح — حبّ الدرس والمطالعة . و

« حينئذ خطر لي ان استأنف ما فاتني في صغري من تعلم فن العروض بجنت بعلمة » . . . .
« ولكن لم يمض على الشروع في الدرس ستة اشهر حتى انتقلت المعلمة الى رحمة ربها . وكانت بنتي تلازم دروسنا تلك المدة فاستطاعت — بسبب حداثة سنها وتوقد ذهنها — ان تلم بفن العروض اكثر من المامي به » (٢)

توحيدة مرّة أخرى ! ترى لماذا تشغف الشاعرةُ بذكرها ، والاشادة باسمها ، واظهار محاسنها ؟ ألما تنطوي عليه من توقد وذكاء ؟ ألأنها جاءت العالم وعائشة حديثة السن فكانت الامُ لابنتها — فيما كانته — أختاً كبيرة ، وكانت البنتُ لوالدتها أختاً صغيرة ؟ ألأنها رفعت عنها عبء التدبير المنزليّ وكانت ، في الوقت نفسه ، أقرب أولادها الى تفهم ذوقها وميولها ؟ أم لاجتماع هذه الميزات في توحيدة الواحدة بعد كونها المولود البكر — تلك الميزة الاولى — وبحبّها ذاقت الشاعرة لذة الامومة للمرّة الاولى ؟

يتعلق بعض الاهل — لا سيما الامهات — كلّ التعلّق بأبكارهم . ولئن أردف قومٌ من المدعوين بعلماء النفس الذين لا تطلقُ منهم الخواطر الا اذا أوجدوا لكلّ سيل جبلاً يصدمهُ — ان هذا التعلّق يخفّ بعد أعوام محدودة ، يوم يفتح الولدُ على الشؤون عيناً ترقبُ وتبرز من شخصيته الخصائصُ المستقلة . وان جماعة

(٢) «مقدمة الديوان التركي والفارسي»

من الامهات يُداخل حبهنّ عندئذٍ بعضُ الكره والنكد لانهنّ يرين في بناتهنّ المنافسات والمسابقات . هذا اذا كانت الامُّ من دعيَّات التأنُّق وعاشقات التلألاؤ الاجتماعيّ في الاندية والحفلات

لئن قال بعض السادة العلماء ذلك فانّ قولهم ينطبقُ على فئةٍ وتتملص منهُ أخرى . تتملص منهُ وتُحلّقُ فوقهُ في جوّ المحبة والرحمة والدراية تلك الفئةُ الصالحة من الرجال والنساء المولودين ليكونوا آباء وامهات . لاننا هنا أيضاً نجد المختارين الصميمين ، وعلى مقربة منهم يدبُّ الدخلاء ويتحرّش المتطفلون .

والحالة الوالدية — كأية حالة حالة طبيعية أو اجتماعية سواها — ان هي كيَّفت الافراد فهي لا تكيّفُ منهم سوى فطرتهم بجبلتها ورغباتها وميولها . لذلك هي لا تبدو بأسنى مظاهرها وأبقاها الاّ في الشخصيات المهيّأة لها

وعائشة مهيأة لذلك على ما نرى من والها بتوحيدة — توحيدة الآلة القاهرة التي تحوّل بواسطتها رواكد العاطفة الوالدية عند الشاعرة تياراً دافقاً . فهي تحب منها المواهب والحسنات وتخلق لعيوب الهزيلة تفسيراً لا يهتدي اليه ، ويترجمه بهذا اللطف ، الاّ من استنار بنور الجنان

هاك مثالاً لذلك :

الفتاة التي كانت تقوم بادارة المنزل ورقابة وضيع أعماله الداخلية كانت — على ما يلوح — لا تقصر دون إتقان اعمال أخرى تقتضي بعض اللياقة ، كاستقبال الزائرات والاحتفاء بهنّ

فجاءت يوماً بعض السيدات (ويظهر ان الغرض من زيارتهنّ ان يخطبنها ، وهي تجهل ذلك) فخفّت توحيدة ترحب بهنّ ريثما تأتي والدتها ، وقالت ملاطفة بموجب الطقس المألوف « أوحشتونا » . الاّ انها كان بلسانها لثغة خفيفة قضت بأن تجيء أوحشتونا « أوحستونا » وهنا دخلت السيدة عائشة فسمعت الكلمة التي حرّفها العيب اللفظيّ ، فمضت تشرح ذلك العيب على هذه الصورة :

قال العوازل مذ قالت مؤانسةً « أوحستنا » انها تجفو وذاك غلطْ
لم يبدل الشين سيناً لفظها غلطاً بل لم يسع ثغرُها الزاهي ثلاث نقط (٢)

(٢) روى لي هذه الحادثة الصغيرة توفيق بك اسكاروس الباحث الاديب نقلاً عن فضيلة السيد البيلاوي وكيل دار الكتب المصرية سابقاً ونقيب الاشراف الآن

ومرّت على الشاعرة فترة — تقول زينب فواز — فقدت خلالها والدها (سنة ١٨٨٢) ثم زوجها بعد ثلاثة أعوام « وصارت حاكمة نفسها فأحضرت لها اثنتين لها المام بالنحو والعروض إحداها تدعى فاطمة الازهرية والثانية ستيته الطبلاوية وصارت تأخذ عليهما النحو والعروض حتى برعت وأتقنت بحوره وأحسنت الشعر وصارت تنشد القصائد المطوّلة والازجال المتنوعة . . . » (٤)

يجوز الاعتراض هنا بأن عائشة نظمت كثيراً قبل تعلّم النحو والعروض على هاتين السيدتين . فقد طالعنا في ديوانها مثلاً قصائد الترحيب بميلاد أخيها ، وتأبين والدها ، وغير ذلك ، وجميعهُ وقع قبل ان « تبرع في الشعر وتتقن بحورهُ » . ومن هنا نستنتج أن استفادتها من قليل الدروس السابقة كانت غير هزيلة

ولكن ، أليس ان ضوابط النظم تتعلق بالموسيقى السمعية أكثر منها بالقواعد المدوّنة ؟ والواقع ان هذه القواعد لم تكن الاّ تقريراً محسوساً لتلك المطالب الدقيقة التي تجهر بها حاسة السمع ، فتلبّيها أفراد الطائفة الواحدة كلٌّ من جانبه على غير تعاهدٍ مع الآخرين . حتى اذا أجمع كثيرون على امر واحد عرفوا انهُ حاجة أولية فعرّفوهُ بياناً ، ودوّنوهُ قاعدة ، ترجع الى حكمها الاجيال من هذه الطائفة . لا لأنها « حكم » بل لان هذا الحكم يترجم عن الحاجة النفسية التي اشتدتها حواس الشعراء في الماضي وستنشدها على الدوام . لذلك ترى ان شعراء جميع البلدان في جميع العصور أوجدوا في مختلف اللغات — غير متحالفين فيما بينهم وجاهلين بعضهم بعضاً — بحوراً للشعر وأوزاناً وضوابط موسيقية ذات وقع لفظيّ في النفس (حتى لمن لا يفهم اللغة) بينا المعنى الشعري يحبو النفس بوقعه الخاص . وعوارض المغالاة والاغراق والتمسك بصيغة النظم دون المبالاة بالجوهر ، طوارىء تداهم اللغات تبعاً لحالات الاقوام ووفقاً لنواميس الاجتماع ، إلاّ انها لا تنقض من الشعر دعامتهُ الموسيقية المؤثرة .

كذلك قد يعترض بعضُ أهل الذوق اعتراضاً خافتاً على ان معلّمة العروض تُدعى . . . الطبلاوية ، قائلين انهُ على التي تعلّم علم الاوزان الشعرية ان تنتحل لها اسماً يتفقُ مع عملها ويوحيهِ للسامع . ولكن ، أليس للطبل من موسيقى ؟ وإن لم يكن للطبل شدو اللحن والنغم ، أليس ان لهُ موسيقى الفصل والوقع والتعريف ؟

(٤) « الدر المنثور »

والسيدة الطبلاوية لم تكنْ تتقن الشعر ، وهو ليس عا يُتَلَقَّن ، بل تعلّمُ كيفية التمييز بين اتزانه وانكساره . فتعها بهذا متضمن لعلمها وعملها

وسواء رضي اهل الذوق لهذا الشرح أم لم يرضوا فليذكروا انه أمرٌ فائق ان يوجد بين السيدات الشرقيات من يستطعن في ذلك العهد المظلم للنساء ان يدرّسن هذه الدروس ، في حين ان من يستطعنهُ اليوم نادرات بيننا وقليلات عند الشعوب الاخرى. اذكر ان كاتباً فرنسويًّا كبيراً (اظنّ الفرد كابس Alfred Capus) ندّد قبيل الحرب في مجلّة « فينا » بالسيدات الفرنساويات لأنهنَّ ، بعد إحصاء دقيق من المتعلّمات بينهنَّ ، ظهر ان العارفات بقواعد النظم وأصول البحور الشعرية ، يكدن لا يبلغن الخُمس في المئة . فما اعظم فضل تينك السيدتين الازهرية والاخرى، ولو كانت الطبلاوية ، عندكنا تعرفان ، وبأنهما أضافتا الى مصباح عائشة زيتاً يعين على تغذية نوره !

***

بيد أنّ تمتّع الشاعرة بالابنة المحبوبة لن يطول . قُدّر على توحيده ان تموت باكراً في ربيع الصبا . علّة مجهولة ترقبها وتنفثُ في جسدها وهي تكتم امرها وفقاً بالتي تحبّها . وها هي تسردُ لنا طرفاً من حديثها المحزن :

« قبل ان تنطرح على فراش المرض فاجأتها في احد الاوقات وهي في رداء نومها وبين اناملها قلم تكتب به القطعة العربية الآتية :

اسمع مقالي يا أريب وقصتي شرح مريب
قد كنت في درج الصبا اهتز كالغصن الرطيب
اصبحت حالي عبرة يبكي على مثلي الغريب
كلا ، ولا لي منهل أروى به الا النحيب
فالدمع مني ساجم والرمس أضحى لي قريب
يا ربي عجل رحلتي واغفر ذنوبي بالحبيب

« فلما رأتني مقبلةً عليها دست رقعة الشعر تحت وسادتها بسرعة ولكني بادرت في الحال لاستخرجها فاختطفتها مني » . ثم خاطبتني قائلة « لا تتأذي يا امي الشفقة بمثل هذه الترّهة » . ثم قالت لجاريتها « خذي هذه الورقة فأحرقيها » فلحقت بالجارية واخذت الورقة منها وألححت عليها بالسؤال فاجابتني « ان سيدتي تتناول الطعام معك ادعاناً لإزالة أمومتك، ولكن الطعام لا يبقى بعد ذلك لحظة في جوفها وهي تذهب كل ليلة الى سرير نومها تطيباً لقلبك غير انها لا يغمض لها جفن » . . . (٥)

(٥) و(٦) « مقدمة الديوان التركي والفارسي »

إن نحن وجدنا هنا دليلاً جديداً على لطافة توحيدة وحرصها على راحة والدتها ، فلا يسعنا إلاّ التعجّب كيف ان الامّ الشديدة الحبّ لم تلمح على وجه ابنتها امارات المرض . تتعجب — لولا الاستدراك بأن التي ترى ان تمر توحيدة الزاهي لا يسع ثلاث نقط فيقلبُ الشين سيناً ، قد تمر بسرعة على عذر شعريّ يكتفي به قلبها المكلّ تعثّر وكلّ شحوب

أمّا وقد ثبت ان الفتاة مريضة حتى لترثي نفسها ، فهاتوا الاطباء ، وهاتوا العلاجات ، وبالغوا في الاعتناء والمداراة ! إلاّ ان المقدور نافذ لا محالة . والمريضة تعلن ذلك وتلقي على والدتها كلمات التعزية والتشجيع . انها أقبلت على عالم السرّ والرهبة فاستمدّت منهُ الحكمة التي تهبط على كلّ مَن حاذاهُ . واستلهمت الغيب ارشاداً للمتخلفين فقامت ، وهي الصغيرة وهم الكبار ، تعظهم بسطوة الراحل وحقه على النصح والتوديع الهادىء :

« هبني تمنعك الشفقة يا اماه الى معالجة امراضي فانه قد آن الاوان . ولا مناص من تلبية نداء المنادي « كل من عليها فان » واني اضرع الى الله ان يلهمك صبر ايوب وان يمنحني لمة رضاك فيكون ذلك سبب الرحمة لي والتجاوز من سيئاتي وان يصون شقيقتي واخوتي »

« ثم ضمتني الى صدرها فاعتنقنا . وبتنا ليلتنا الى الصباح في بكاء وانتحاب ونواح »(٦)

قضت توحيده ، فاقامت لها الامُّ مناحةً دامت سبعة أعوام متوالية ، فأضعف البكاء نظرها وأصابها الرمد . « وهنالك كثرت لواحيها وعواذلها من اولادها وصويحباتها » . « واخيراً سمعت قول الناصحين وقللت شيئاً فشيئاً من البكاء والنوح حتى شفاها الله من مرض العيون » (٧) . وهذا خبر ذلك الشفاء من قلمها :

« اصبح جسمي الضعيف كأنه فاقد الحياة لكثرة اتعابي واوصابي ، ثم انعم الله علي بالشفاء واشرقت ظلمات كآبتي بنور وجود ابني محمود فكان فرحة بيت الحزن » (٨)

يخيّل ان هذا الفتى محمود شبّ على شيء من ميول توحيدة ، وكأنهُ قد صمّم على ان يقوم ببعض ما كانت تقوم بهِ اختهُ الكبرى ليفوز بتعزية والدتهِ وربح محبتها الخاصة . ويظهر انهُ نجح . لانهُ هو « فرحة بيت الحزن » الذي شرع بنصح ويؤاسي ويذكر الام الحزينة بالآية الكريمة : « وبشر الصابرين الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا : انا لله وانا اليهِ راجعون » . وهو الذي طلب اشعارها العربية ليجمعها

(٧) « الدر المنثور » (٨) مقدمة الديوان التركي والفارسي

وأشعارها التركية ليطبعها فتكون « أثراً من آثار براعتك وفصاحتك » [٩] وقالت :

« في استطاعتي ان انظم الآن شيئاً من الشعر شكراً لله تعالى على ما وهبني من النعم . اما اشعاري الماضية فكنت قد احرقتها كلها، ولا اظن انه في مكتبتي الا الشيء اليسير منها بالعربية والتركية. واما اشعاري الفارسية فانها لما كانت في محفظة فقيدتي فقد احرقتها بمحفظتها كما احترق كبدي

« ان امك يا بني لم تبق عندها الآن رغبة في قراءة شيء من كتب الادب » « وسأنصرف الى الانكباب على تفسير القرآن ومطالعة الحديث النبوي واني وهبتك ما عندي من الكتب والاوراق فاصنع بها ما شئت » واذا « رأيت فيها جدارة بالطبع فاطبعها » (١٠)

وكان ميل محمود شديداً — وكل ابن لأم ذكية يدرك ذلك — الى إظهار فضل والدته بصورة عامة . فنشر الكتب وكان له بذلك علينا حق الامتنان

⁂

في عنوان هذا الفصل « بعد الزواج » شبه وعد بشرح أحوال غير معروفة وتبيين دقائق غامضة . وها انا لم آتِ إلاّ ببعض الخطوط الكبرى التي استطعتُ تناولها . بيد ان الشرح لا ينتهي بانتهاء هذه الصحيفة . وعندما ننظر في شعر عائشة ونثرها وآرائها نظل ماشين تسلسل الايام والاعوام في حياتها لأنّ كلّ ما لدينا منها دوّنته إلاّ القليل بعد الزواج

يخيّل ان آجال الافراد عموماً تخضع لمقدّرين اكبرين اثنين : أحدهما مداومة السير واستمرار التتابع ضمن حدودٍ طبيعيّة وفي دائرة قوانين محتومة . والمقدّر الآخر هو ان يعمل المرء طول حياته — مع بعض التغير في أنواع العمل بمقتضى الأطوار المختلفة — باختيارٍ مسيّر — ان صحّ الجمع بين هذين النقيضين . وكأنّ العمل ينجزُ هو الآخر ضمن حدودٍ ضُربت لهُ وفي دائرة قوانين لا يخرقها الاّ مستهتراً مفسداً على نفسه إمكان المعيشة

جداول جداول تجري اعمارُ الافراد نحو ما وراء الموت ممّا لا يُحدّ ولا يُدرك . جداول يسيطر عليها ذانك المقدّران الشاملان في المرض والعافية ، في الفرح والترح ، في الامل والقنوط ، في الرغبة والاشتياق ، في المحبة والكراهة . والاصوات المختلفة المتصاعدة بتأثير هذه العوامل تكوّن شدو الجداول البشرية — ذلك الشدو المطرب المشجي . وهذا الجدول من عمر عائشة هو الذي سنسمعهُ شادياً في ما يلي بإبهام كلّ خريرٍ ، ولذة كلّ قدم ، وتبشير كلّ رائد . . . (مي)

---

(٩) و (١٠) مقدمة الديوان التركي والفارسي